

تفسير البحر المحيط

@ 400 @ جملة الآيات التي عددها ، دالاً على وحدانيته وقدرته . تشعب هذا الفائق للحصر من نفس آدم وخلق حواء من قصيراه ، إلا أن إحداهما جعلها □ عادة مستمرة ، والأخرى لم تجربها العادة ، ولم تخلق أنثى غير حواء من رجل ، فكانت أدخل في كونها آية ، وأجلب لعجب السامع ، فعطفها بثم على الآية الأولى ، للدلالة على مباينتها فضلاً ومزية ، وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية ، فهو من التراخي في الحال والمنزلة ، لا من التراخي في الوجود . انتهى . وأما { ثُمَّ جَعَلَ مِنْهُمَا زَوْجَهَا } ، فقد تقدّم الكلام على هذا الجعل في أول سورة النساء ، ووصف الأنعام بالإنزال مجازاً ما ، لأن قضاياه توصف بالنزول من السماء ، حيث كتب في اللوح : كل كائن يكون وأما لعيشها بالنبات والنبات ناشئ عن المطر والمطر نازل من السماء فكأنه تعالى أنزلها ، فيكون مثل قول الشاعر :

أسنمة الا بال في ربابه .

أي : في سحابه ، وقال آخر :

صار الثريد في رؤوس العيدان .

وقيل : خلقها في الجنة ثم أنزلها ، فعلى هذا يكون إنزال أصولها حقيقة . والأنعام : الإبل والبقر والضأن والمعز ، { ثَمَّ أَنْزَلْنَا مِنْهَا نِجْمًا مُنِيرًا } ، لأن كلاً منها ذكر وأنثى ، والزوج ما كان معه آخر من جنسه ، فاذا انفرد فهو فرد ووتر . وقال تعالى : { فَجَعَلْنَا مِنْهُ الْزَّوْجَ الْوَحِيدَ الَّذِي كَرِهَ وَالْأُنثَى } .

قال ابن زيد : { خَلَقْنَا مِنْ بَعْدِ خَلْقِ } : آخر من ظهر آدم وظهور الآباء . وقال عكرمة ومجاهد والسدي : رتبا { خَلَقْنَا مِنْ بَعْدِ خَلْقِ } على المضغة والعلقة وغير ذلك . وأخذه الزمخشري فقال : حيواناً سوياً ، من بعد عظام مكسوة لحماً ، من بعد عظام عارية ، من بعد مضغ ، من بعد علق ، من بعد نطف . انتهى . وقرأ عيسى وطلحة : يخلقكم ، بإدغام القاف في الكاف ، والظلمات الثلاث : البطن والرحم والمشيمة ، وقيل : الصلب والرحم والبطن . { ذَالِكُمْ } : إشارة إلى المتصف بتلك الأوصاف السابقة من خلق السموات وما بعد ذلك من الأفعال . { فَأَنْزَلْنَاهُ نُجْمًا مُنِيرًا } : أي كيف تعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره ؟ .

{ إِنَّ تَكْفُرُوا } ، قال ابن عباس : خطاب للكفار الذين لم يرد □ أن يطهر قلوبهم . وعباده : هم المؤمنون ، ويؤيده قوله قبله : { فَأَنْزَلْنَاهُ نُجْمًا مُنِيرًا } ، وهذا للكفار .

، فجاء { إِنَّ تَكْفُرُوا ° } خطاباً لهم ، { فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ° } ، وعن عبادتكم ، إذ لا يرجع إليه تعالى منفعة بكم ولا بعبادتكم إذ هو الغني المطلق . قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون مخاطباً لجميع الناس ، لأنه تعالى غني عن جميعهم ، وهم فقراء إليه . انتهى . ولفظ عباده عام ، ف قيل : المراد الخصوص ، وهم الملائكة ومؤمنو الإنس والجن . والرضا بمعنى الإرادة ، فعلى هذا صفة ذات . وقيل : المراد العموم ، كما دل عليه اللفظ ، والرضا مغاير للإرادة ، عبر به عن الشكر والإثابة ، أي لا يشكره لهم ديناً ولا يثيبهم به خيراً ، فالرضا على هذا صفة فعل بمعنى القبول والأثابة . قال ابن عطية : وتأمل الإرادة ، فإن حقيقتها إنما هي فيما لم يقع بعد ، والرضا حقيقته إنما هو فيما قد وقع ، واعتبر هذا في آيات القرآن تجده ، وإن كانت العرب قد تستعمل في أشعارهم على جهة التجوز هذا بدل هذا . وقال الزمخشري : ولقد تحمل بعض الغواة ليثبت □ ما نفاه عن ذاته من الرضا لعباده الكفر ، فقال : هذا من العام الذي أريد به الخاص ، وما أراد إلا عباده الذين عناهم في قوله : { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ° } ، يريد